مادة الأدب الأموي (قسم النثر): د. زاهر الشمّاع

المحاضرة الثامنة

النثر الكتابي في العصر الأموي

أولاً: الكتابة والكُتَّاب في العصر الأموي

– تطوَّرت الكتابة في الطور الأول من الإسلام، ولاسيَّما في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، حين اتسعت رقعة الدولة، وتوسعت الفتوحات الإسلامية، فكثر تبعاً لذلك القواد والولاة والقضاة، وأصبح الخليفة بحاجة إلى مخاطبتهم فيما يقومون به من أمور.

– واتسم النثر الكتابي في ذلك العصر بالإيجاز، وأداء المعنى بأسلوب سهل ومعنى واضح، في غير تكلُّف أو صنعة كتابية، مع الفصاحة، والخلوص من التنافر والغرابة. كما برز الجدل العقلي واضح القسمات في أواخر خلافة عُثمان، وطوال خلافة عَلِيّ.

– ونَمَت الكتابةُ في العصر الأموي نمواً واسعاً، فقد اتسعت الفتوح، وتفرَّق الولاة والعمال في الأقطار، واحتاجت الدولة أن تبلِّغ أولئك وغيرهم من أصحاب المناصب أموراً تتعلق بالسياسة أو الإدارة، فنشأت كتابة الرسائل.

– وأقيمت الدواوين الكتابية على أسس منظمة، وكانت ذات طابع تخصُّصي، مما ساعد على قيام طبقة من الكُتَّاب العاملين في تلك الدواوين، ودفع ذلك كله مسيرة النثر الفني لتتبوَّأ مكانة عليا في المجتمع، ومن ثَمَّ خطا النثر الفني خطوات متميزة ذات طابع أصيل. ومن تلك الدواوين التي ظهرت في العصر الأموي: ديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان البريد.

– وكان لكُتَّاب الدواوين مكانة لا تُضاهى، وكان أولئك الكُتَّاب من العرب الذين تثقَّفوا بثقافات الأمم الأخرى في مواطن التحضُّر، ومن الموالي الذين حذقوا اللغة العربية مع حذقهم لثقافات لغاتهم الأصلية.

– ومن أشهر الكُتَّاب في هذا العصر: عبد الحميد الكاتب، وسالم مولى هشام بن عبد الملك، وحَفِظَ لنا التاريخُ اسمَ كاتب أموي هو صالح بن عبد الرحمن، الذي تَزَعَّمَ حركةَ تعريب الدواوين في زمن الحجَّاج بن يوسف الثقفي، وكان كُتَّابُ العراقِ من تخريجه كما ذكر القَلْقَشَنْدِيّ.

ثانياً: أدب الترسُّل في العصر الأموي

يمكن أن نقسم النثر الكتابي في هذا العصر إلى قِسمَين: الرسائل **الديوانية**، والرسائل **الإخوانية**.

أ– الرسائل الديوانية:

شملتْ الرسائل الديوانية كُلَّ ما يتعلق بشؤون إدارة الدولة، وحياة المجتمع، وكثرتْ موضوعاتها، ومن أهمِّها: موضوع السياسة، وقد شغل هذا الموضوع الحيِّز الأكبر من الرسائل في العصر الأموي، بسبب كثرة الأحزاب السياسية، والفتن، والثورات، والاتجاهات الفكرية المتعددة. ويجد الباحث فيضاً زاخراً من الرسائل الديوانية في هذا الميدان، ومن الموضوعات التي نجدها في هذه الرسائل: (الشكر الرسمي، والحرب، والإدارة كالتَّولية والعَزْل...، والأمور الماليَّة المختلفة...) وسنأتي على ذكر موضوعات الرسائل الديوانية في فقرة لاحقة.

وإذا رصدنا **تطوُّر الرسائل الديوانيَّة** من حيث خصائصها وسماتها، وجدنا أنها مرَّتْ بثلاث مراحل: مرحلة عهد معاوية بن أبي سفيان، ومرحلة عهد عبد الملك بن مروان، ومرحلة عهد هشام بن عبد الملك، وسنقف على مقتطفات من أمثلة عن رسائل كل مرحلة.

١– المرحلة الأولى: عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١هـ – ٦٠هـ)

بدأت الرسائل السياسية في عهد معاوية بن أبي سفيان، وكانت أشبه برسائل الخلفاء الراشدين، تقوم على الإيجاز والسهولة، ومن أمثلتها تلك الرسائل التي دارتْ بين الحسن بن علي، ومعاوية بن أبي سفيان، بعد مقتل عَلِيّ ﷺ، وفيها يدعو معاوية الحسنَ إلى الدخول في طاعته، مستخدماً أسلوب الحِجَاج، وإيراد الدلائل والبراهين، كقوله في إحدى رسائله: «... **ولكنّي قد علمتُ أنّي أَطْوَلُ منك ولايةً، وأَقْدَمُ منك بهذه الأمة تجربةً، وأكبرُ منك سِنّاً، فأنت أَحَقُّ أنْ تُجيبَني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخلْ في طاعَتي**» ولجأ معاوية إلى أسلوب الترغيب في سجاله مع الحسن، فدعاه إلى حقن دماء المسلمين، والمسارعة إلى بيعته، واتبع في ذلك أسلوب الإغراء: قال: «**ادخلْ في طاعَتي ولك الأمر مِنْ بعدي، ولك ما في بيتِ مالِ العراق من المالِ، مالٍ بالغاً ما يبلغ، تحمله إلى حيث أحببتَ...**»

وواضح أنَّ هذه الرسائل تسير على نمط الكتابة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين، تعبيرها موجز يبلغ القصد ويؤدِّي الغرض، مع سهولة وفصاحة في الأسلوب.

٢– المرحلة الثانية: عهد عبد الملك بن مروان (٦٥هـ – ٨٦هـ)

زخر هذا العهد بالرسائل الديوانية التي تدلُّ على تحوُّل عمَّا كانت عليه الرسائل في السابق، إلى طريق العناية في تجويد العبارة، وتوفير الضروب الفنّيّة والجمال لها، فمن ذلك رسالتان؛ إحداهما للحَجَّاج بن يوسف الثقفي، والأخرى لقَطَرِيّ بن الفُجاءة.

– رسالة الحَجَّاج بن يوسف الثقفي إلى قَطَرِيّ بن الفُجاءة:

«**سلامٌ عليك، أمَّا بعد: فإنَّك مَرَقْتَ من الدِّيْنِ مُروقَ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ، وقد علمتَ حيث تجرثمتَ[1]، وذاكَ أنَّكَ عاصٍ للهِ ولولاةِ أَمْرِه، غيرَ أنَّكَ أَعْرابِيٌّ جِلْفٌ أُمِّيٌّ، تستطعمُ الكِسْرةَ، وتستشفي بالتَّمْرة، والأمورُ عليكَ حَسْرة، خرجتَ لتنالَ شُبْعَةً، فلَحِقَ بكَ طَغامٌ[2] صَلُوا بمثلِ ما صَلِيْتَ به من العيش، فهم يهزُّون الرِّماح، ويستنشئون الرِّياح، على خَوْفٍ وجَهْدٍ من أمورهم، وما أصبحوا ينتظرون أَعْظَمَ مِمَّا جَهِلوا معرفتَهُ، ثم أهلكهم اللهُ بتَرْحَتَيْن. والسَّلام.**»

– **مناسبة الرسالة:**

كان قَطَرِيّ رئيساً للأزارقة الذين استولوا على الأهواز ونواحيها، وكانوا أقوى فِرَق الخوارج شوكةً وأشدّهم قوة. وقد ظلَّ المهلَّب بن أبي صُفْرة قائد الحَجَّاج يحاربهم تسع عشرة سنة حتى قدر عليهم. وكان الأزارقة بعد موت نافع بن الأزرق الذي نُسِبوا إليه قد بايعوا قَطَرِيّ بن الفُجاءة، وسمّوه (أمير المؤمنين)، فكتب الحَجَّاج إلى قَطَرِيّ في هذه الأثناء رسالته هذه.

[1] تجرثمت: سقطت من عل.

[2] الطَّغام: أوباش الناس وأوغادهم.

١– الدراسة المعنوية:

- **معاني الرسالة وأفكارها:**

١. اتّهام قَطَرِيّ بالكفر والخروج عن الدِّيْن.

٢. التقليل من شأن ثورة الخوارج، بتجريدها من الأهداف التي قامت من أجلها، وتصوير أصحابها في صورة الخارجين من أجل الجوع، وسدّ الرمق.

٣. التهديد والوعيد بالقضاء عليهم.

- **سمات المعاني:**

كانت معاني الرسالة واضحة جليّة، لا غموض فيها ولا لَبْس، وأتت مرتَّبة متسلسلة، فالمعاني في هذه الرسالة يأخذ بعضها برقاب بعض. ويبدو الأثر الإسلامي في الرسالة واضحاً، ويتجلَّى في اتهام الحَجَّاجِ الخوارجَ بالكفر والخروج عن الدِّيْن، وميله إلى تصنيف الناس في فئتَيْن: فئة المسلمين، وفئة الكافرين، وذكر عصيانهم أوامر الله تعالى، ثم ذكر إهلاك الله لهم.

٢– الدراسة اللغوية:

- **لغة الرسالة:**

ألفاظ الرسالة جزلة فخمة، تعبِّر عن طبع صاحبها، وهو طبع يميل إلى الخشونة والقسوة، وهي ألفاظ واضحة، في غالبيتها، ولا نعدم فيها بعض الألفاظ الغريبة، مثل: ((**تجرثمت، تَرْحَتَيْن، طَغام**)). وأمَّا التراكيب فهي فصيحة، مؤسَّسة على الألفاظ، تمتاز بجودة السبك والرصانة. ولغة الرسالة لا تقعير فيها ولا إسفاف.

- **الأسلوب:**

١. غلب الطول على جمل الرسالة ((**فإنَّك مَرَقْتَ من الدِّيْنِ مُروقَ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ**))، لأنَّ الغاية منها التفصيل، ولا تخلو الرسالة من بعض الجمل القصيرة ((**تستطعمُ الكِسْرةَ، وتستشفي بالتَّمْرة، والأمورُ عليكَ حَسْرة**)).

٢. عُنِيَ الحَجَّاج بالخيال، وفي رسالته من فنون الخيال: التشبيه ((**فإنَّك مَرَقْتَ من الدِّيْنِ مُروقَ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ**))، والاستعارة ((**صَلُوا بمثلِ ما صَلِيْتَ به من العيش**))، والكناية ((**تستطعمُ الكِسْرةَ**)).

٣. قامت الرسالة – في معظمها – على الأسلوب المرسل، لكننا نقف فيها على بعض الجمل المسجوعة عفواً ((**تستطعمُ الكِسْرةَ، وتستشفي بالتَّمْرة، والأمورُ عليكَ حَسْرة**)).

- رسالة قَطَرِيّ بن الفُجاءة إلى الحَجَّاج:

«سلامٌ على الهُداةِ من الوُلاة الذين يَرْعَونَ حَرِيمَ الله ويَرْهَبونَ نِقَمَهُ، فالحمدُ لله على ما أظهرَ من دينه، وأَظْلَعَ[3] به أَهْلَ السِّفالِ، وهدى به من الضَّلالِ، ونَصَرَ به، عند استخفافِكَ بحقِّه، كتبتَ إليَّ تذكرُ أنِّي أَعْرابِيٌّ جِلْفٌ أُمِّيٌّ أستطعِمُ الكِسْرةَ وأستشفي بالتَّمْرة، ولَعَمْري يا بْنَ أمِّ الحَجَّاج إنَّكَ لَمُتَيَّهٌ في جِبِلَّتِكَ، مُطْلَخِمٌّ[4] في طَرِيْقَتِكَ، واهٍ في وثيقتكَ، لا تعرفُ اللهَ، ولا تَجْزَعُ من خَطِيئتكَ، يَئِسْتَ واستيأسْتَ من ربِّكَ، فالشيطانُ قَرِينُكَ، لا تجاذِبُهُ وَثاقَكَ، ولا تنازِعُهُ خِناقَكَ، فالحمدُ لله الذي لو شاءَ أبرزَ لي صفحَتَكَ، وأَوْضَحَ لي صَلَعَتَكَ، فوالذي نَفْسُ قَطَرِيٍّ بيده، لعرفتَ أَنَّ مقارعةَ الأبطال، ليس كتصدير المقال، مع أَنِّي أرجو أنْ يَدْحَضَ الله حُجَّتَكَ، وأنْ يَمْنَحَنِي مُهْجَتَكَ».

- **مناسبة الرسالة:**

كانت رسالة قَطَرِيّ هذه رَدّاً على رسالة الحَجَّاج بن يوسف، ولم تكن أقل منها تصويراً ولا أضعف تحبيراً.

١- الدراسة المعنوية:

- **معاني الرسالة وأفكارها:**

بدأ قَطَرِيّ رسالته بالسلام، وعَرَّضَ بالحَجَّاج، ثمّ حمد الله تعالى على إظهار الدين والهداية، وانتقل بعد ذلك إلى نقض المعاني التي ذكرها الحَجَّاج في رسالته، ونَعَتَهُ بأوصاف الكفر والخروج عن الدين، وراح يُحَقِّر شأن الحَجَّاج بنسبته إلى أمّه، ويتَّهمه بالتكبُّر والتجبُّر، ساخراً من كلامه، مهدِّداً إيَّاه.

- **سمات المعاني:**

معاني الرسالة واضحة بعيدة عن الغموض، وأفكارها مرتَّبة متسلسلة، قائمة على نقض معاني رسالة الحَجَّاج معنى معنى، وقد غلب عليها الأثر الإسلامي (الاتِّهام بالكفر، التعاون مع الشيطان..).

٢- الدراسة اللغوية:

- **لغة الرسالة:**

ألفاظ الرسالة جزلة قوية متمكِّنة في مواضعها ((**أَظْلَعَ، مُطْلَخِمٌّ**...))، وهي فصيحة، واضحة، بعيدة عن الغريب، وتراكيبها متينة محكمة، بسيطة، ليس فيها تقديم وتأخير، بعيدة عن الهلهلة والركاكة.

---

[3] الظلع: الميل.

[4] متجبّر متكبّر.

- **الأسلوب:**

١. طغى الأسلوب الخبري على الرسالة، ولَوَّنَ قَطَرِيّ الخبرَ في رسالته، فاستعمل المؤكِّدات ((**إنَّكَ لَمُتَيَّهٌ في جِبِلَّتِكَ**)) والنفي ((**لا تجاذِبُهُ وَثاقَكَ، ولا تنازِعُهُ خِناقَكَ**))، ولكننا لا نعدم فيها بعض الجمل الإنشائية (النداء، القسم) ((**ولَعَمْري يا بْنَ أمِّ الحَجَّاج**...)).

٢. تراوحَت الجمل في الرسالة بين الطول والقصر، فطالت في المواضع التي تحتاج تفصيلاً ((**سلامٌ على الهُداةِ من الوُلاة الذين يَرْعَونَ حَرِيمَ الله ويَرْهَبونَ نِقَمَهُ**))، وقصرت في المواضع التي لم يحتج فيها إلى التفصيل ((**لا تعرفُ اللهَ، ولا تَجْزَعُ من خَطِيئتكَ**)).

٣. عُنِيَ قَطَرِيّ بالخيال، ففي رسالته كناية وتَعْرِيض: ((**سلامٌ على الهُداةِ من الوُلاة الذين يَرْعَونَ حَرِيمَ الله ويَرْهَبونَ نِقَمَهُ،... وأَظْلَعَ به أَهْلَ السِّفال**))، وفيها استعارة: ((**واهٍ في وَثِيقَتِكَ**))، وفيها كناية: ((**فالشيطانُ قَرِينُكَ ،... وأنْ يَمْنَحَنِي مُهْجَتَكَ**)).

٤. في الرسالة اهتمام ببعض فنون البديع، ففيها جمل مسجوعة ((**وأَظْلَعَ به أَهْلَ السِّفال، وهدى به من الضَّلال**))، وفيها جمل قامت على التوازن الذي أضفى على الرسالة وَقْعاً موسيقياً ((**إنَّكَ لَمُتَيَّهٌ في جِبِلَّتِكَ، مُطْلَخِمٌّ في طَرِيْقَتِكَ، واهٍ في وثيقتكَ**)).

إنَّ النظر في الرسالتَين السابِقتَين يبيِّن أنَّ فنَّ الرسائل قد تطوَّر عمَّا كان عليه في عهد صدر الإسلام، وأخذ طريقاً مغايراً لما كان عليه الحال في أوَّل عهد دولة بني أمية، فقد مالت الرسائل إلى العناية بالخيال، واهتمَّ أصحابها بضروب التحسين اللفظي والمعنوي، وبدأتْ تميل إلى الإطناب.

٣- المرحلة الثالثة: عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ – ١٢٥هـ)

فإذا تجاوزنا عهد خلافة عبد الملك بن مروان إلى عهد هشام بن عبد الملك ومولاه سالم الذي كان يكتب له، وجدنا أنفسنا أمام تطوُّر ملحوظ في كتابة الرسائل الديوانية، فقد أصبح الخلفاء منذ هذا العهد لايُمْلُون رسائلَهم كما كان الحال عليه في عهد عبد الملك، وإنما أصبح الكاتب هو الذي يكتب الرسائل في شؤون الدولة ثم يعرضها على الخليفة، فكان هذا إيذاناً ببدء دولة الكُتَّاب الذين كانت لهم صولات وجولات في فنّ الرسائل الديوانية في عهد بني العباس. وأخذت الرسائل تشير إلى سمات أسلوب كاتبها. وقد نهض سالم بالرسائل الديوانية إلى مستوى راقٍ متقدِّم من استخدام أسلوب الترادُف والازدواج، والفصاحة في استخدام اللغة الجزلة الرصينة التي لا تخلو من الغريب. ويعود تطوُّر الرسائل في عهد سالم إلى ثقافته العالية، فقد كان يجيد اليونانية، وينقل منها الكتب إلى العربية، وكان مُطَّلِعاً على التراث الأدبي العربي، ومُلِمّاً بأساليبه، ومن ثَمَّ خطا بالرسائل الديوانية خطوات متقدِّمة.

ومن أشهر كُتَّاب الرسائل الديوانية في هذا العهد **عبد الحميد بن يحيى بن سعيد، المعروف بالكاتب**: كان عبد الحميد صهراً لسالم وتلميذاً تخرَّج على يديه في فنّ الكتابة الديوانية، وعمل في ديوان هشام ثم عمل مع مروان بن محمد حين كان والياً على أرمينية مِنْ قِبَلِ هشام، وظلَّ ملازِماً له (أي لمروان بن محمد) حتى تولَّى الخلافةَ في عام ١٢٧هـ، فأصبح رئيساً لديوانه، وعاش معه أيام محنته وصراعه مع بني العباس، وكان وَفِيّاً له، لم يفارقه حتى الموت، ومن ثمّ ضُرِبَ به المثلُ فقيل: (أَوْفَى مِنْ عبد الحميد).

- نموذج من رسائل (عبد الحميد الكاتب) الديوانية:

« اعلمْ أنَّ للحكمة مَسالِكَ تُفْضِي مَضايِقُ أَوائِلِها بمَنْ أَمَّها سالِكاً، ورَكِبَ أَخْطارَها قاصِداً، إلى سَعَةِ عاقِبَتِها، وأَمْنِ سَرْحِها، وشَرَفِ عِزِّها، وأنها لا تُعارُ بسُخْفِ الخِفَّةِ، ولا تُنْشَأُ بتَفْرِيْطِ الغَفْلَةِ...، واعلمْ أنَّ احتواءكَ على ذلك وسَبْقَكَ إليه بإخلاصِ تَقْوَى اللهِ في جميع أُمُورِكَ مُؤْثِراً لها، وإضمار طاعته مُنْطَوِياً عليها، وإعظامِ ما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عليكَ شاكراً له، مرتبطاً فيه للمَزِيد بِحُسْنِ الحِياطَةِ له والذَّبِّ عنه مِنْ أَنْ تَدْخُلَكَ منه سآمةُ مَلال، أو غَفْلَةُ ضَياع، أو سِنَةُ تَهاوُن، أو جَهالَةُ مَعْرِفَة: فإنَّ ذلك أَحَقُّ ما بُدِئَ به ونُظِرَ فيه ».

- **من موضوعات الرسائل الديوانية في عهد بني أمية:**

- تنبيه الخارجين على الدولة وتحذيرهم ووعظهم، كما في رسالة المهلَّب والي خراسان إلى ابن الأشعث الثائر على السلطة الأموية.
- منح الخارجين على الدولة الأمان، ومثاله ما كتبه عمرو بن سعيد إلى الحسين وهو متجه إلى العراق طالباً الخلافة، يسأله أن يرجع عما عزم عليه وله الأمان الكامل، والمعاملة الطيبة، مع العطاء والخير والإحسان.
- الشكر، ونجده في ردّ الحسين على عمرو بن سعيد الذي طلب منه الرجوع عن مسيره إلى العراق وأنَّ له الأمان والصلة، فقال: **«إنْ كنتَ نَوَيْتَ في الكتابِ صِلَتِي وبِرِّي فجُزِيْتَ خَيْراً في الدنيا والآخرة.»**
- الحرب وكل ما يتَّصل بها، كرسالة عبد الملك بن مروان إلى أخيه بشر بن مروان بأنْ يرسل إليه خمسة آلاف رجل من أهل الكوفة لقتال الخوارج، ومما جاء فيها: « **فإذا قَضَوْا غَزاتَهُمْ تلك، صَرَفْتَهُمْ إلى الرَّيِّ فقاتَلُوا عَدُوَّهُمْ، وكانوا في مَسالِحِهِمْ[٥]، وجَبَوْا فَيْئَهُمْ، حتى تأتيَ أيَّامُ عَقَبِهِم[٦]، فتعفيهم، وتبعث آخرين مكانهم.**»
- موضوعات الإدارة، كالتَّوْلية والعَزْل، ووضع أسس لبرامج تصلح سير إدارة الدولة، وقضايا العمران، وغير ذلك.
- فَضْلاً عن موضوع الاقتصاد، كالجِزْية والخَراج والعشور والعطاء والأرزاق.

انتهت المحاضرة الثامنة

[٥] المسالح: ج المسلحة، وهي موضع مخافةٍ يقف فيه الجند بالسلاح للمراقبة والحفظ، كالثَّغْر والمرقَب.

[٦] الذين يأتون بعدهم، أي الفوج البديل الذي يقاتل مكانهم.